على انسان الانتفاضة ان يدرك ان الفرصة تكون سانحة للغرب لتمزيق العرب في حالة واحدة هي حالة الفرقة التي نعيشها. فالهزيمة أتت ليس لأن قدراتنا أقل من ارادتنا، ولكن لأن قدراتنا أقل من تماسكنا؛ وهو ما أدركته احدى نساء الارض المحتلة حين صاحت: « ـ هم العرب لو انهم أيد واحدة كان ما عمر دولة أجنبية هزمتهم»(١٨).

بيد ان أهمّ صور الانتفاضة على الاطلاق تظل ارادة الشعب الفلسطيني. وهي الارادة التي تزيد مرجل الغضب، وتسعى بامكاناتها الذاتية، الى تحدّي عدو غادر مدجج بالسلاح من قمّة رأسه الى أخمص قدميه.

وبعد ان كان يردَّد، من قبل، المثل الفلسطيني «كف ما بتلاطم مخرز»، برهنت الحركة الشعبية الآن على خطأ هذا المثل. فالمواجهة الفعلية عند محمد وتد تأخذ شكلاً متحدياً حتى لتقابل جثة الشهيد «بزغاريد الانتفاضة»، وهو ما نراه في عديد من المواقف، كصياح الشيخ في المختار المتخاذل: « ـ وتقول الحيط الحيط... بعد ان قلت كف ما يلاطم مخرز هل هذه شهادة المخترة!».

وظهرت صورة الارادة في موقف الفدائي جابر في رواية «الجراد...»؛ اذ تيقن جلّادوه، بعد جرعات هائلة من العذاب، انه لن يعترف على زملائه، فراحوا يصرخون فيه من آن الى آخر:

« ـ انت راسك عنيد... وراسك يابس... وين اصحابك؟ احكي وبنخلّيك تروح عند أولادك». ويعود صوت جابر بسرعة: « ـ أنا معرفش ولا إشي»(١٩). لقد قرّر جابر ان يموت ولا يوشي بزملائه، ممّا دفع الجنود المسلّحين الى ان يشيروا الى المعتقلين، ويصيحون في أسى: « ـ هدول كلهم نفس الشيء... رأسهم يابس»(٢٠).

علامات فنية

ولا يمكن ان ننتهي من بعض صور الانتفاضة دون ان نشير الى بعض هذه الصور، عبر التشكيل الدلالي في النص الروائي.

اننا في نص «الانتفاضة»، بوجه خاص، ازاء علامات فنية تفوق الحصر، بدءاً من العنوان، وصولاً الى النهاية المفتوحة، مروراً بكل الملامح الفنية التي تثري المضمون، كاستخدام التراث، وكثافة استخدام العامية الفلسطينية، وتناثر الأغاني الشعبية والامثلة العامة، والاضفاء الملحمي، وتميّز الاسلوب، وتعدّد الرمز، وتكاثر أشكال الصيغة، الى غير ذلك مما يمكن به الاقتراب أكثر من دلالة المعنى. وسوف نكتفي، هنا، بثلاثة فقط من هذه الملامح التي يمكن ترتيبها على النحو التالي:

التراث

ان استخدام التراث لا يأتي منفصلاً عن الحس القومي؛ اذ ان ايثار التراث، وخاصة النواحي الاسلوبية، يمنح صاحبه حرصاً على الهوية وايثاراً لها. ولعلّ اميل حبيبي (سنوات ما قبل الانتفاضة) كان أكثر الروائيين الفلسطينيين استخداماً لهذا الحس. وتعدّدت صوره في أعماله وتباينت بين شكل السخرية وعبر المقامات وحول الاستغلال النسبي لمغامرات البطل وايثار الاسناد الشكلي التقليدي المعروف في علم الحديث «كتب الى سعيد...»، ثمّ تطريز النص بكتابات الجاحظ وابن عبد ربه والقرآن الكريم.

وقد كان الواقع تحت نير الاحتلال يفرض على رواية الانتفاضة الاستجابة لهذا الخيار